الجزء الحادي والعشرون — سورة لقمان

سُورَةُ لُقْمَانَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً
لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم
بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ
لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا
كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ
بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا
مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا
خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

٤١١

سورة لقمان

معانى الكلمات :

يوقنون : يؤمنون .

لهو الحديث : الباطل .

مهين : مذل .

وقراً : صمما .

رواسى : جبالًا ثابتة .

تميد بكم : تضطرب بكم .

دابة : كل ما يدب على الأرض .

مبين : واضح .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعلم المسلم عظم مكانة آيات الله عز وجل .

٢ ـ أن يشعر المسلم بطلاقة القدرة الإلهية وأن يلامس قلبه حلاوة الإيمان .

٣ ـ أن يمضى المسلم حاملا دعوة الله للناس جميعاً .

المحتوى التربوى :

تبدأ السورة بالأحرف المقطعة التى تقرر أن هذه السورة من جنس تلك الأحرف ، هى آيات الكتاب الحكيم .

يقول صاحب الأساس : « وكيف لا يكون حكيما ، وهو كتاب الله الحكيم ، فهو حكيم فى أحكامه ، وحكيم فى معالجاته ، وحكيم فى ترتيب آياته ، وحكيم فى ترتيب سوره ، وحكيم فى ألفاظه ، وحكيم فى طريقة مخاطباته ، وحكيم فيما تحتمله آياته من وجوده ، وحكيم فى مرونة ألفاظه حتى تسع الزمان والمكان ، وحكيم فى كونه يضع كل شىء فى محله ، ويجعل أهله يضعون الأشياء فى مواضعها » .

وآيات القرآن هدى ورحمة للمحسنين ، هدى يهديهم إلى الطريق الواصل الذى لا يضل سالكوه ، ورحمة بما يسكبه لبهدى فى القلب من راحة زطأنينة وقرار ، وما يقود إليه من كسب وخير وفلاح ، وبما يعقده من الصلات والروابط بين قلوب المهتدين به .

والمحسنون هم : « ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ .. وإقامة الصلاة وأداؤها على وجهها وفى وقتها أداء كاملاً تتحقق به حكمتها وأثرها فى الشعور والسلوك، وتنعقد به تلك الصلة الوثيقة بين القلب والرب ، ويتم به هذا الأنس بالله وتذوق حلاوته التى تعلق القلوب بالصلاة .. وإيتاء الزكاة يحقق استعلاء النفس على شحها الفطرى ، وإقامة نظام لحياة الجماعة يرتكن إلى التكافل والتعاون . ويجد وأولئك الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم يوقنون بالآخرة .. ﴿ أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ . ومن هُدى فقد أفلح ، فهو سائر على النور ، واصل إلى الغاية ، ناج من الضلال فى الدنيا ، ومن عواقب الضلال فى الآخرة ؛ وهو مطمئن فى رحلته على هذا الكوكب تتناسق خطاه مع دورة الأفلاك ونواميس الوجود ؛ فيحس بالأنس والراحة والتجاوب مع كل كائن فى الوجود .

الواجدون فيه والمحرومون الثقة والطمأنينة ومودات القلوب التى لم يفسدها التلاف ولا الحرمان .. واليقين بالآخرة هو الضمان ليقظة القلب البشرى ، وتطلعه إلى ما عند الله ، واستعلائه على أوهاق الأرض ، وترفعه على متاع الحياة الدنيا ؛ ومراقبة الله فى السر والعلن وفى الدقيق والجليل ؛ والوصول إلى درجة الإحسان التى سئل عنها رسول الله ﷺ فقال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإم لم تكن تراه فإنه يراك » .

وهؤلاء المحسنون هم الذين يكون الكتاب لهم هدى ورحمة ؛ لأنهم بما فى قلوبهم من تفتح وشفافية يجدون فى صحبة هذا الكتاب راحة وطمأنينة ؛ ويتصلون بما فى طبيعته من هدى ونور ، ويدركون مراميه وأهدافه الحكيمة ، وتصطلح نفوسهم عليه ، وتحس بالتوافق والتناسق ووحدة الاتجاه ، ووضوح الطريق . وإن هذا القرآن ليعطى كل قلب بمقدار ما فى هذا القلب من حساسية وتفتح وإشراق ؛ وبقدر ما يقبل عليه فى حب وتطلع وإعزاز . إنه كائن حى يعاطف القلوب الصديقة أويجاوب المشاعر المتوجهة إليه بالرفرفة والحنين !

يقول صاحب الظلال :﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ .. يشتريه بماله ويشتريه بوقته، ويشتريه بحياته . يبذل تلك الأثمان الغالية فى لهو رخيص ، يفنى عمره المحدود ، الذى لا يعاد ولا يعود ، يشترى هذا اللهو ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ فهو جاهل محجوب، لا يتصرف عن علم ، ولا يرمى عن حكمة ؛ وهو سيِّئ النية والغاية ، يريد ليضل عن سبيل الله . يضل نفسه ويضل غيره بهذا اللهو الذى ينفق فيه الحياة . وهو سيِّئ الأدب يتخذ سبيل الله هزوًا ، ويسخر من المنهج الذى رسمه الله للحياة وللناس . ومن ثم يعالج القرآن هذا الفريق بالمهانة والتهديد قبل أن يكمل رسم الصورة : ﴿ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .. ووصف العذاب بأنه مهين مقصود هنا للرد على سوء الأدب والاستهزاء بمنهج الله وسبيله القويم .

ثم يمضى فى استكمال صورة ذلك الفريق : « ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ وهو مشهد فيه حركة ترسم هيئة المستكبر المعرض المستهين . ومن ثم يعالجه بوخزة مهينة تدعو إلى تحقير هذه الهيئة : ﴿ كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ وكأن هذا الثقل فى أذنيه يحجبه عن سماع آيات الله الكريمة ، وإلا فما يسمعها إنسان له سمع ثم يعرض عنها هذا الإعراض الذميم . ويتمم هذه الإشارة المحقرة بتهكم ملحوظ : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فما البشارة فى هذا الموضوع إلا نوع من التهكم المهين ؛ يليق بالمتكبرين المستهزئين » !

ويعرض النص القرآنى مسوغات استحقاق الضالين لعذاب الله فهم يتخذون آيات الله هزوا ، ويسخرون من المنهج الذى رسمه الله لهم ، بل إنهم إذا تليت آيات الله أعرضوا عنها ، أما المؤمنون فهم يخرون لآيات الله سجدا .

أما جزاء المؤمنين فيذكر قبله العمل الصالح مع الإيمان فطبيعة هذه العقيدة تقتضى ألا يظل الإيمان فى القلب مجرد حقيقة معطلة ، إنما هو حقيقة حية فاعلة متحركة ، ما تكاد تستقر فى القلب ويتم تمامها حتى لتتحرك ذاتها فى العمل والحركة والسلوك .

ثم يلفت القرآن الذهن للكون الفسيح سمواته وأراضيه ، وهو تنوع فى الدعوة للمنكرين بأن يروا هذه السموات المرفوعة بغير عمد، والناس يرونها مهما امتدت أبصارهم بالليل والنهار، ويرون النجوم السابحة التى تبدو كالنقط الصغيرة ، وكل نقطة منها تبلغ كتلتها أضعاف كتلة الأرض التى تقله ملايين المرات .

ثم يعود السياق القرآنى ليُرى آيات الله فى الأرض ، ومنها الجبال الرواسى التى تحفظ توازن الأرض ولا تهتز ، ومن آيات الله فى الأرض وجود الحياة على هذا الكون بمختلف أنواع الأجناس والفصائل والأنواع والأنماط ... ليس هذا فحسب ، بل الإنسان نفسه آية فهو يحوى جسمه مئات المعامل الكيماوية العجيبة ، ومئات المخازن للإيداع والتوزيع ، ومئات المحطات اللاسلكية للإرسال والاستقبال ، ثم تجد بعد هذه الآيات من يمر بهذه العجائب مغمض العينين ومطموس القلب وكأنهم يمرون على شىء عادىّ لا يستلفت النظر؟!وما زال النص القرآنى يعرض الآيات وهى نزول المياه التى تنبت نباتات من كل زوج كريم ، وهى حقيقة علمية بأن كل نبات له خلايا تذكير وتأنيث ، وفى هذا تحدٍ للظالمين الذين ضلوا عن صراط الله العزيز الحميد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ المستحق لتلقى القرآن واستقاء رحمته وهداه من أوتى العقيدة الصحيحة .

٢ ـ أن يحفظ المسلم وقته فلا يضيعه فى الهذر والهزل .

٣ ـ التفكر فى خلق الله عز وجل فى السماء والأرض والجبال . والبحار . والأمطار . والزرع . والإنسان .

سُورَةُ لُقْمَان

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ
لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ
لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ
وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ
إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ
وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ
خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ
بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ
مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ
مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ
وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

٤١٢

معانى الكلمات

فصاله : فطامه .

أناب : رجع .

خردل : حب أسود صغير يضرب به المثل فى الصغر .

لا تصعر خدّك : لا تمل وجهك .

مختال : معجب بنفسه .

اقصد : توسط فى المشى.

اغضض : اخفض من صوتك .

أنكر الأصوات : أقبح الأصوات .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعرف المسلم فضل الوالدين وعظم منزلتهما .

٢ ـ أن يشعر المؤمن بفضل والديه عليه وأن يجد حلاوة الطاعة ، ويستشعر قبح المعصية .

٣ ـ أن يحرص المؤمن على طاعة والديه وأن يكون متواضعاً لله .

المحتوى التربوى :

يقول صاحب الأساس : « بين يدى قصة لقمان عليه السلام : جاءت قصة لقمان عليه السلام بعدما تقرر أن القرآن حكيم من عند حكيم ، ومن ثَمَّ تأتى القصة لتعرفنا على أدب تلقى الحكمة من الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ ، وجاءت لترينا نماذج من حكمة الحكماء كنموذج على انطباق حكمة الحكماء مع ما أمر به القرآن ، وكنموذج على الحكمة فى هذا القرآن أصلا ، وتأتى القصة لترينا أدب الحكماء فى نشر الحكمة وتعميمها ، وفى ذلك إشارة إلى أن القرآن يجب أن يوصى به وأن ينشر ويبلغ ، ومن ثم فإن قصة لقمان عليه السلام التى فى سورة لقمان تأتى لتخدم سياق السورة الخاص والعام من جوانب متعددة .

* وإذا تأملنا فى الوصايا التى أوصى بها لقمان عليه السلام ابنه وجدنا أنها تشتمل على أوامر ونواه ، والآيات تعلمنا أن للإحسان دخلاً فى العبادة وفى العشرة مع الوالدين وفى الصلاة .. وهذه كلها وصايا عظيمة وآداب جليلة وهى مظاهر من الإحسان والهداية ، وهذا مظهر جديد من مظاهر صلة قصة لقمان عليه السلام بالسياق .

وتبدأ هنا جولة ثانية فى السورة،وهى معالجة قضية الشكر لله وحده، وتنزيهه عن الشرك كله، بأن ذكر الله عز وجل نعمته على عبده لقمان بأن آتاه الله الحكمة وهى نعمة كبيرة يؤتيها لمن يصطفيه من خلقه ، تقتضى أن يعلم الله عز وجل عبده أن يشكر الله عليها ، وهى تعلمنا ـ نحن المسلمين ـ أن نشكر الله على القرآن الكريم ، وشكر النعمة عائد نفعه إلى العباد تعلى درجاتهم وتقربهم إلى ربهم ، بل وأدعى لتتزايد نعم الله عليهم .

ومن تمام أداء شكر النعمة أن يوصى الإنسان أولاده بالحكمة ويربيهم عليها ، فهنا لقمان يوصى ابنه بأغلى وصية وهى عدم الشرك بالله ؛ لأنه أشد الظلم ويعلق صاحب الظلال بقوله :

« وإنها لعظة غير متهمة ، فما يريد الوالد لولده إلا الخير ،وما يكون الوالد لولده إلا ناصحا، وهذا لقمان الحكيم ينهى ابنه عن الشرك ، وهذه هى الحقيقة التى يعرضها محمد على قومه لا يريد بهم إلا الخير » .

وفى ظل نصيحة الأب لأبنه يعرض للعلاقة بين الوالدين والأولاد فى أسلوب رقيق ، ويصور هذه العلاقة صورة موحية فيها انعطاف ورقة .

يقول صاحب الظلال : « وتوصية الولد بالوالدين تتكرر فى القرآن الكريم ، وفى وصايا رسول الله ﷺ ، ولم ترد توصية الوالدين بالولد إلا قليلا ، ومعظمها فى حالة الوأد ـ وهى حالة خاصة فى ظروف خاصة ـ ذلك أن الفطرة تتكفل وحدها برعاية الوليد من والديه ، فالفطرة مدفوعة إلى رعاية الجيل الناشئ ؛ لضمان امتداد الحياة وكما يريدها الله ، وإن الوالدين ليبلان لوليدهما من أجسامهما وأعصابهما وأعمارهما ومن كل ما يملكان فى عزيز وغال ، فى غير تأفف ولا شكوى ، بل فى غير انتباه ولا شعور بما يبذلان ، بل فى نشاط وفرح وسرور كأنهما هما اللذان يأخذان ، فالفطرة وحدها كفيلة بتوصية الوالدين دون وصاة .

فأما الوليد فهو فى حاجة إلى الوصية المكررة ليلتفت إلى الجيل المضحى المدبر المولى الذاهب فى أدبار الحياة ، بعدما سكب عصارة عمره وروحه وأعصابه للجيل المتجه إلى مستقبل الحياة ، وما يملك الوليد وما يبلغ أن يعوّض الوالدين بعض ما بذلاه ، ولو وقف عمره عليهما » .

وتنبه الآيات أن رابطة الوالدين رغم كرامتها وعظمها تأتى بعد رابطة العقيدة ، إن وشيجة العقيدة تعلو على كل وشيجة ، فإذا اختلفت عقيدة الوالدين فالطاعة لله ، ومع هذا فالعبد يطيع الوالدين فى غير العقيدة بأن يصاحبهما مصاحبة كريمة ، وأن تكون المعاملة الطيبة ، بل نتبع سبيل من أناب إلى الله ، فإبراهيم عليه السلام الأواه المنيب ألان الكلام لأبيه آزر رغم شركه بالله .

ثم تعود الآيات لذكر وصايا لقمان لابنه بتذكيره بإن الله يعلم أخفى الخفايا . وذلك كى يطيع الله فى كل أوامره ويتجنب نواهيه ، وكى يخشع القلب وينيب إلى اللطيف الخبير بخفايا الذنوب .

وتستمر الوصايا فى ترتيب دقيق من عدم الشرك بالله ، وإدراك علم الله عز وجل إلى الأمر بالصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فالصلاة تنهى عنهما ، وهذه الأشياء كلها هى زاد المؤمن قبل المعركة مع الشر ، زاد العبادة بالصلاة ثم الصبر على ما يصيب الداعية إلى الله من التواء النفوس وعنادها ، وانحراف القلوب وإعراضها ، وهذه الوصايا لا ينهض بها إلا الخاشعون كما قال عز وجل : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (البقرة) .

ويستمر البيان القرآنى فى عرض نصائح تكفل سلامة المجتمع الإسلامى من التعالى والكبر ، والداعية هو أولى الناس بالبعد من تلك الصفات ، وفى ذلك يقول **صاحب الظلال بتصرف** : « والمشى فى الأرض مرحاً هو المشى فى تخايل ونفخة وقلة مبالاة بالناس، وهى تعبير عن شعور مريض بالذات ، ومع النهى عن مشية المرح بيان للمشية القاصدة المعتدلة ، وعدم إضاعة الطاقة فى التبختر والتثنى والاختيال ، والغض من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس ، ما يزعق وما يغلظ فى الخطاب إلا سيئ الأدب أو شاك فى قيمة قوله ، أو قيمة شخصه فيحاول إخفاء هذا الشك بالحدة أو الغلظة والزعاق ».

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الشكر لله دائماً على نعمه .

٢ ـ البر بالوالدين دائماً ، وتجنب عقوقهما .

٣ ـ استشعار مراقبة الله عز وجل فى كل أمور العبد .

٤ ـ الحرص على الآداب القويمة من الاعتدال فى المشية وخفض الصوت .

سُورَةُ لُقْمَان — الجُزْءُ الحَادِي وَالعِشْرُون

أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ
عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟
مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ
ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ الحزب ٤٢
وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ
وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ
إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ
﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾
وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ
مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ
مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ
وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

٤١٣

معانى الكلمات :

سخر : هيأ وذلل .

أسبغ : أتم وأوسع .

يجادل فى الله : ينكر وجوده .

السعير : النار الموقودة .

الوثقى : القويمة .

عاقبة الأمور : مصيرها .

يمده : يزيده .

سبعة أبحر : مملوءة ماء .

ما نفدت : ما انتهت .

كلمات الله : عجائبه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بعظم وكمال قدرة الله فى الكون .

٢ ـ أن يعلم المؤمن بعض مظاهر قدرة الله فى الكون .

٣ ـ أن يسلم المؤمن وجهه لله عز وجل وأن يكون قدوة للآخرين فى الرضا بمقدور الله .

المحتوى التربوى :

هنا تبدأ جولة ثالثة فى سورة لقمان وهى عرض لمشهد كونى مرتبط بالناس ومصالحهم ، فالسياق للتأمل فى خلق السموات والأرض ، وهذه لفتة مكررة فى القرآن بشتى الأساليب تبدو جديدة فى كل مرة ؛ لأن هذا الكون لا يزال يتجدد فى الحس كلما نظر إليه القلب، وتدبر أسراره ، وتأمل عجائبه التى لا تنفد .

والسياق يعرض هذه اللفتة هنا من زاوية التناسق بين حاجات الإنسان على الأرض ، وتركيب هذا الكون ، مما يقطع بأن هذا التناسق لا يمكن أن يكون فلتة ولا مصادفة ؛ وأنه لا مفر من التسليم بالإرادة الواحدة المدبرة التى تنسق بين تركيب هذا الكون الهائل وحاجات البشر على هذا الكوكب الصغير الضئيل الأرض .

يقول صاحب الظلال : « فضل الله على هذا الإنسان ونفخته فيه من روحه ، وتكريمه له على كثير من خلقه .. هذا الفضل وحده قد اقتضى أن يكون لهذا المخلوق وزن فى نظام الكون وحساب ، وأن يهيئ الله القدرة على استخدام الكثير من طاقات هذا الكون وقواه ، ومن ذخائره وخيراته ، وهذا هو التسخير المشار إليه فى الآية فى معرض نعم الله الظاهرة والباطنة ، وهى أعم من تسخير ما فى السماوات وما فى الأرض .

فوجود الإنسان ابتداء نعمة من الله وفضل ، وتزويده بطاقاته واستعداداته ومواهبه ،هذه نعمة من الله وفضل ، وإرسال رسله ، وتنزيل كتبه فضل أكبر ونعمة أجل ، ووصله بروح الله من قبل هذا كله نعمة من الله وفضل ، وكل نفس يتنفسه ، وكل خفقة يخفقها قلبه ، وكل منظر تلتقطه عينه، وكل صوت تلتقطه أذنه، وكل خاطر يهجس فى ضميره، وكل فكرة يتدبرها عقله.. إن هى إلا نعمة ، ما كان لينالها لو لا فضل الله » .

إن المجادلة من طريق الكفر لهذا الكون المشاهد وفى تلك النعم السابغة ، والإنكار والجحود لها يبدو شيئاً قبيحاً، تنفر منه الفطرة ، ويقشعر منه الضمير ، ويزيد الموقف بشاعة أنه لا يرتكن فى هذا الجدال إلى علم ، ولا يهتدى بهدى ، ولا يستند إلى كتاب ينير له القضية ويقدم له الدليل .

إن الآيات توضح بعد ذلك سفه دعاوى المشركين وهو تقليدهم آباءهم فى كفرهم ، فهذا هو سندهم الوحيد ، أما الإسلام فهو يريد تحرير المشركين من الجمود والتقليد، وهو السبيل الذى اتبعوا الشيطان فيه .

وتوضح الآيات فى صورة المقابلة صورة المؤمن الذى أسلم وجهه لله ، واطمأن لقدر الله ، وانصاع لأوامره ، فأصبح المؤمن فى رباط مع الله ، وهى العروة الوثقى التى تحفظ المسلم ، وتجعله رابط الجأش فى مواجهة الأحداث ، وعن ثمرة العروة الوثقى **يقول صاحب الظلال** : « إن الرحلة طويلة وشاقة ، وشاملة بالأخطار ، وخطر الحرمان فيها والشقاء ، وخطر السراء فيها ليس أهون ولا أيسر من خطر الضراء » .

وفى الآيات بعد ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾ نجد فيها عزاء للدعاة بألا يحزنوا من إعراض المدعوين ، وأن البلاغ مهمة الدعاة إلى الله عز وجل ، وشأن الكفار المعرضين أهون وأقل من أن يحزن الدعاة ، فالأنبياء والدعاة نعمة كبرى يستحق جاحدها العذاب الأليم .

ثم تظهر الآيات الحقيقة الكامنة التى لا يستطيع أن ينكرها الكافرون حين يستفتون فطرتهم، ويعودون إلى ضميرهم ، والسموات الأرض بأوضاعها ، وأحجامها وحركاتها وأبعادها لا

يدعى أحد أنه خلقها ، إن منهج مخاطبة الكافرين يعتمد على إثارة الذهن لهذا الكون الفسيح وإعجازه وتنسيقه .

وتأتى الآيات بعد ذلك تقرر أن العزة لمن تمسك بالله والغنى فى طاعته ، فقدرة الله ليست محدودة ولا متناهية ، وأوامره وكلماته لا تنفد، وعلمه لا يحد، فليستمر الدعاة إلى الله فى دعوتهم، فالله بقدرته مع الذين آمنوا ، أما الكافرون فدعواهم باطلة وقوتهم واهية أمامه عز وجل ، ومشيئته التى ليس لها حدود ولا قيود ، وآياته فى الكون ، فلو أن البشر أتوا بكل الشجر وحولوه أقلاماً ، وجميع ما فى الأرض من بحار تحول لمداد يمده من بعده سبعة أبحر ما انتهت كلمات الله ، ولعجز العباد عن إحصاء آياته ومعجزاته فى الكون .

ويقول صاحب الظلال : « والآن تختم هذه الجولة بمشهد كونى يرمز إلى غنى الله الذى لا ينفد وعلمه الذى لا يحد وقدرته على الخلق والتكوين المتجددين بغير ما نهاية ومشيئة المطلقة التى لا نهاية لما تريد : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ .

إنه مشهد منتزع من معلومات البشر ومشاهداتهم المحدودة ؛ ليقرب إلى تصورهم معنى تجدد المشيئة الذى ليس له حدود ، والذى لا يكاد تصورهم البشرى يدركه بغير هذا التجسيم والتمثيل ... إن كلمات الله لا تنفد لأن علمه لا يحد ؛ ولأن إرادته لا تكف ولأن مشيئته سبحانه ماضية ليس لها حدود ولا قيود .

وتتوارى الأشجار والبحار وتنزوى الأحياء والأشياء وتتوارى الأشكال والأحوال ويقف القلب البشرى خاشعاً أمام جلال الخالق الباقى الذى يتحول ولا يتبدل ولا يغيب ، وأمام قدرة الخالق القوى المدبر الحكيم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وتستمر الآيات فى إثبات طلاقة القدرة ويسر الخلق وسهولة البعث فالعبد يعمل وعمله له ينتهى عنده ، والله عز وجل يستوى عنده خلق الواحد والملايين بكلمة المشيئة : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ (يس) .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ شكر الله عز وجل على نعمه ، والتفكر فى طلاقة قدرة الله فيها .

٢ ـ الصبر فى الدعوة إلى الله ، والحذر من قرب اليأس لنفس الداعية .

٣ ـ التفكر فى خلق الله عز وجل وآياته فى الكون ، وتأمل طلاقة قدرة الله فى خلقه الله .

ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل
وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله
بما تعملون خبير ﴿٢٩﴾ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون
من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴿٣٠﴾ ألم تر أن
الفلك تجري في البحر بنعمت الله ليريكم من آياته إن
في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴿٣١﴾ وإذا غشيهم موج
كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر
فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور
﴿٣٢﴾ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد
عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله
حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله
الغرور ﴿٣٣﴾ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث
ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا
وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ﴿٣٤﴾

سورة السجدة

معانى الكلمات :

يولج : يدخل .

الظلل : جمع ظلة وهو كل ما يرتفع ويظل كالسحاب .

مقتصد : معتدل فى عقيدته .

ختار : غدار شديد الغدر .

كفور : جحود للنعم .

الغرور : كل ما يخدع الإنسان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعلم المسلم عاقبة الاغترار بالحياة الدنيا .

٢ ـ أن يشعر المسلم بنعم الله عليه .

٣ ـ أن يجتهد المؤمن فى عباداته ويلتزم أوامر الله ويجتنب نواهيه .

المحتوى التربوى :

وتأتى الجولة الأخيرة فى السورة لتقرر أن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، وتقرر إخلاص العبادة لله وحده ، وتقرر قضية اليوم الآخر الذى لا يجزى فيه والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا، تقرر ذلك عن طريق التفكر فى مشهد دخول الليل فى النهار، ودخول النهار فى الليل ، وتناقصهما وامتدادهما عند اختلاف الفصول ، وهو مشهد عجيب ، لكن لطول الألفة والتكرار فقد أكثر الناس الحاسية تجاهه ، فلا يلحظون هذه العجيبة التى تتكرر بانتظام دقيق لا يتخلف مرة ولا يضطرب ، والله وحده هو القادر على إنشاء هذا النظام وحفظه ، ولا يحتاج إدراك هذه الحقيقة إلى أكثر من رؤية تلك الدورة الدائبة التى لا تكل ولا تحيد .

إن الآيات تعلم الداعى إلى الله تنوع فن الدعوة إلى الله لا سيما مع المنكرين الذين يحتاجون إلى دلائل واضحة بالتفكر فى هذا الكون الثابت الدائم المنسق الدقيق ، وبأن كل شىء يلحقه الزيادة والنقصان ، وتعتوره القوة والضعف، والازدهار والذبول ، والإقبال والإدبار ، وهو وحده سبحانه الدائم الباقى الذى لا يتغير ولا يتبدل فهو العلى الكبير .

وحتى الآيات التى يعرضها النظم القرآنى روعى فيه التنوع ، فيأتى هذا النظم بآيات تتعلق بحياة الجاحدين والمنكرين فالفلك التى تجرى وفق نواميس الله فى البحر فقد وُضِعت فى البحر خواص لا تختل لتحفظ جريان السفن، ولو اختلت كثافة الماء ، أو نسبة ضغط الهواء على سطح البحر ، أو اختلت تيارات الماء والهواء فى الحدود المناسبة ، لو اختل أى شىء من هذه الأشياء ما جرت السفن على الماء لكن الله هو حارس الفلك وحاميها فوق ثبج الماء وسط العواصف والأنواء .

وتذكر الآيات أن احتياج العباد مؤمنهم وكافرهم أكبر دليل على وجوده ، فإذا جرت الفلك فى الماء وجاءت أمواج تغشى هذه الفلك كالريشة فى الخضم الهائل تعود النفوس كلها إلى ربها ، فيقول صاحب الظلال : « تتعرى النفوس من القوة الخادعة ، وتتجرد من القدرة الموهومة ، التى تحجب عنها فى ساعات الرخاء حقيقة فطرتها ، وتقطع ما بين هذه الفطرة وخالقها ، حتى إذا سقطت هذه الحوائل ، وتعرت الفطرة من كل ستار ، استقامت إلى ربها ، واتجهت إلى بارئها ، وأخلصت له الدين ، ونفت كل شريك ، ونبذت كل دخيل ، ودعوا الله مخلصين له الدين » .

لكن الفطرة التى اعتادت الانحراف تنكر الله ونعمته فاستحقوا العذاب لجحودهم نعم الله ، أما الفطرة السليمة فتظل على استقامتها ؛ لأن قلبها لامس رحمة الله ، فأدركت قدرة الله .

ومن الهول الأصغر تنقلنا الآيات إلى الهول الأكبر وهو يوم القيامة ، وفيه تجدى أواصر الطاعة لله ، والانقيادية له وتظهر الموازين الحقيقية ، وتنقطع موازين الدنيا الباطلة من أواصر الدم والقربى ، ووشائج الرحم والنسب بين الوالد والولد وبين الأخ وأخيه : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (المؤمنون) ووعد الله حق فلا يخلف ولا يتخلف ، ولا مفر من الحساب الدقيق والجزاء العادل ، الذى لا يغنى فيه والد عن ولد ، ولا مولود عن والد .

وتوضح الآيات أسباب البعد عن الله عز وجل وهو الغرور بمتاع الحياة الدنيا من متاع يلهى، أو شغل ينسى ، أو شيطان يوسوس فى الصدور ، والشياطين كثير ، الغرور بالمال شيطان ، والغرور بالعلم شيطان ، والغرور بالقوة شيطان ، والغرور بالسلطان شيطان ، ودفعة الهوى شيطان ، ونزوة الشهوة شيطان ، وتقوى الله وتصور الآخرة هى العاصم من كل غرور.

يقول صاحب الظلال : « وبعد الجولات الثلاثة السابقة تأتى الجولة الرابعة وختام السورة ، وفى ظل هذا المشهد المرهوب يجىء الإيقاع الأخير فى السورة قويًا عميقًا مرهوبًا يصور علم الله الشامل ؛ ويقر القضية التى تعالجها السورة بكل أجزائها ويخرج هذا كله فى مشهد من مشاهد التصوير القرآنى العجيب : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ ... وإن النفس البشرية لتقف أمام هذه الأستار عاجزة خاشعة تدرك بالمواجهة حقيقة علمها المحدود وعجزها الواضح ويتساقط عنها غرور العلم والمعرفة المدعاة » .

والسياق القرآنى يعرض هذه المؤثرات العميقة التأثير فى القلب البشرى فى رقعة فسيحة هائلة ... رقعة فسيحة الزمان والمكان وفى الحاضر الواقع والمستقبل المنظور والغيب السحيق وفى خواطر النفس ووثبات الخيال : ما بين الساعة البعيدة المدى والغيث البعيد المصدر ، وما فى الأرحام الخافى عن العيان والكسب فى الغد وهو قريب فى الزمان ومغيب فى المجهول وموضع الموت والدفن وهو مبعد فى الظنون .

وكل هذه الآيات غيبيات لا يعلمها إلا الله لإثبات القصور البشرى أمام القدرة الإلهية المطلقة، ولتتساقط دعاوى الغرور ، غرور العلم والمعرفة المدعاة ، وتعرف أمام هذه الأستار أن الناس لم يأتوا من العلم إلا القليل .

وهذه الغيبيات تشمل الزمان والمكان وخواطر النفس والخيال ، والساعة البعيدة ، والغيث، وما فى الأرحام ، إنها رقعة فسيحة الآماد والأرجاء ؛ لتطأمن النفس البشرية من كبريائها وتخشع لله .

وهكذا تنتهى السورة كما لوكانت رحلة هادئة بعيدة الآماد والآفاق والأغوار والأبعاد ويؤوب القلب من هذه الرحلة المديدة البعيدة الشاملة الشاسعة وئيد الخطا لكثرة ما طوّف ولجسامة ما يحمل ، ولطول ما تدبر وما تفكر فى تلك العوالم والمشاهد والحيوات .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ التفكر فى مخلوقات الله يهدينا إلى الإيمان به تعالى .

٢ ـ فى يوم القيامة كل فرد مسؤول عن عمله فلا قرابة تنفع ، ولا صداقة تشفع .

٣ ـ وعد الله حق لا يتخلف أبداً .

٤ ـ أن عاطفة الإيمان موجودة عند البشر جميعاً وتظهر وقت الشدة .

٥ ـ الحرص على الجمع بين الشكر والصبر .